الفصل الأول

لَبِنَة الأسرة، ما أهميتها؟ وما هي وظائفها؟

- **مقدمة**
- **أهمية الأسرة في الإسلام**
- **أهداف الأسرة في القرآن**
- **الانتقال إلى مرحلة الأبوة والأمومة**
  - تأثير الأولاد في الاستقرار الأسري
  - علاقة نسبة الطلاق بعدد الأولاد
  - مهمات أُسريّة
- **حجم الأسرة في الولايات المتحدة وبريطانيا بين الماضي والحاضر**
- **الأسرة أحادية الوالد**
- **نظرة على المعاشرة من دون زواج**
  - الخُلْع أو الطلاق من دون إبداء الأسباب المسوغة له
  - أسس نجاح الوالد المفرد
- **هل يُغني أحد الوالدين عن الآخر؟**
- **ملحوظة عن الإسلام والطلاق**
- **أثر الطلاق على الأولاد**
- **مدى الحاجة إلى نظام تربية وتعليم سليمين**
- **الحركات الإصلاحية والتربية**
- **الأسرة في أمريكا**
  - ما وراء إحصائيات الوفيات بالانتحار
  - الخرافات السائدة حول التربية الوالدية في أمريكا
  - دروس من مجزرة مدرسة (كولومباين) الثانوية في ولاية كولورادوا
- **مقارنة عامة بين الأُسَر في البلدان الإسلامية والولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا**
  - التأثير الغربي على التربية الوالدية في العالم الإسلامي
  - قصتان عن مسلمين يعيشان في بريطانيا
- **التربية الوالدية في بريطانيا والولايات المتحدة**
- **أيهما أولى: الحق أم الحرية؟**
- **دراسة حالة عن الصدمة الثقافية عند التنقل بين الشرق والغرب، أين نربي أولادنا؟**
- **مفهومان مفقودان في الفكر الغربي: الله أكبر والله أعلم**
- **مقارنة بين القيم الأخلاقية العَقَدِيَّة والقيم الأخلاقية المتلائمة**
- **النموذج الزراعي للأسرة: الأولاد كالنباتات، والوالدان كالبُستاني**
- **الأنشطة ١-٨**

مقدمة

ما الأسرة؟ وما الغرض منها؟ كيف تعمل؟ ما أهدافها؟ ما الذي يجعلها قوية؟ ما الذي يزعزعها؟ ما المساهمات التي يمكن أن يقدمها كل فرد لأسرته كي تصبح أسرة ناجحة؟ كيف يقاس نجاحها؟ إن الجواب عن هذه الأسئلة كلها له تأثير مباشر على التربية الوالدية الرصينة، وطريقة تربية الأولاد.

من الضرورة أن يكون الآباء والأمهات والقرّاء على بينة من قدرة الأسرة المتماسكة واستطاعتها في إحداث التغيير الاجتماعي الإيجابي؛ لأن هذا التغيير الذي تحدثه لا يمس أفرادها فقط بل المجتمع كله. وسنبين أساليب التربية الوالدية في العالم الإسلامي بوجه خاص وفي الغرب بصورة عامة.

يُعرّف بعضهم «الأسرة»: أنها مجموعة من الناس تربطهم علاقة، ويرى غيرهم أنها علاقة اجتماعية، ويذهب آخرون إلى أنها مجموعة مؤلفة من الوالدين والأولاد الذين يعيشون معاً في منزل واحد، ومع أن هناك وجهات نظر عديدة في تعريف الأسرة، فإن تعريف الأسرة كثيراً ما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالزواج والأولاد، فتنشأ لَبِنَة الأسرة بالزواج، وهو ليس شراكة بين شخصين فحسب، ولكنه أيضاً اندماج لأسرتين ممتدتين. فالأسرة في الإسلام هي مؤسسة تربوية تنشأ بالزواج، ويتفاعل أفرادها بعلاقات وطيدة، وتنهل من توجيهات الكتاب والسنة المنظمة للأسرة إنشاءً وضبطاً وإنهاءً.

وقد تغيرت لَبِنَة الأسرة الحديثة على مر السنين (خاصة في الغرب) إلى حد كبير، وتحولت من بِنْية (الأسرة الممتدة) إلى بنية (الأسرة النُّواة)، زيادة على تقليل عدد أفراد الأسرة، حيث يفضل الكثير من الناس الآن عدداً أقل من الأولاد مقارنة بالأجيال السابقة، فالأسرة جزء من ثقافة أكبر وأوسع، وتعدُّ ثقافة كاملة في حد ذاتها؛ لأن الأسرة هي عبارة عن منزل مُصغَّر للعبادة، وحكومة مُصغَّرة، ومدرسة صغيرة للعلم والتعلم.

أهمية الأسرة في الإسلام

يولي الإسلام أهمية بالغة للحفاظ على الأسرة، ويؤكد القرآن الكريم أن البشر هم أكرم مخلوقات الله، وهم خلفاء في الأرض، فهم بحاجة إلى تأهيل وإعداد للقيام بهذه المهمة، لذلك ليس من قبيل الصُّدْفة أن مرحلة الطفولة عند البشر أطول، مقارنة بالحيوانات جميعها، فنقطة الانطلاق في «مدرسة الأسرة للتربية والتعليم» هي العلاقة الرحيمة بين الزوجين، فلا ينبغي لهذه العلاقة أن تكون مبنية على ما يشابه «صفقات العمل» أو «القوانين» (علماً بأن «قوانين الأسرة» ضرورية، كحد أدنى لحماية العائلة جميعها). ويتعين أن تبنى العلاقة بين الزوجين على المودة والرحمة، وأن يكون الوالد/ الوالدة في الأُسَر جميعها حتى أُحاديّة الوالد رؤوفاً وعطوفاً بأولاده، ومن دون هذا الأساس لن تتحقق معاني المواصفات الواردة في القرآن الكريم (قُرّة أعين، وللمتقين إماماً) في تكوين أسرة سعيدة وتربية أولاد ناجحين صالحين.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤)

تعد الأسرة ضرورة للبشر جميعهم لتحقيق الصحة النفسية الكاملة، وقد خلقنا الله في أحسن تقويم، وكرمنا على العالمين، في تناسق تام في الصورة والطول واللون والحركة والمظهر، وكذلك من الناحية النفسية والروحية والعقلية، وأنعم علينا بأن نكون قبائل وشعوباً وأمماً لنتعارف بسلام واطمئنان.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤).

ست نظريات بلا أولاد.. وستة أولاد بلا نظريات !

«كان لدي ست نظريات في تربية الأبناء قبل الزواج، والآن عندي ستة أطفال وليس لدي أي نظرية».

John Wilmot, Earl of Rochester
(oxford 2013)

فالحاجة إلى أُلفة حقيقية وصحيحة لا تكتمل إلا إذا صار الفرد زوجاً، فلا يحصل المرء على الراحة النفسية الكاملة واكتمال دينه إلا ضمن قدسية الزواج، كما يؤكد لنا القرآن الكريم: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧).

والزواج الذي تُبنى به الأُسَر ينقل الإنسان إلى مراحل نمو وتطور كبيرة ومتعددة، من مرحلة الضعف في مرحلة الطفولة، إلى مرحلة النمو والتعلم؛ لنصل إلى مرحلة الذروة في القوة والشدة، ونعود في آخر المطاف إلى مرحلة الضعف والشيبة (التي تتضمن فقدان القوة والمعرفة والذاكرة)، ويستمر الآباء والأمهات في النمو النفسي في هذه الرحلة، كذلك يستمرون في عطائهم وأداء رسالتهم تجاه أولادهم وأحفادهم وسائر أفراد الأسرة.

يطرأ بعد الزواج عامل آخر للنمو والتطور وهو الرغبة في إنجاب أولاد وتكوين أسرة، وفي هذه المرحلة يمكن أن تقع أربعة احتمالات مختلفة، هي: أن ينجبا بنات فقط، أو ينجبا بنين فقط، أو ينجبا بنات وبنين، أو أن يكون أحد الزوجين أو كلاهما عقيماً. ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (الشورى: ٤٩-٥٠).

إن الرغبة في الإنجاب تحقق السعادة النفسية، وتتواصل تلك السعادة مع تجربة الوالدين برؤية أولادهم متزوجين، ثم بإنجابهم أولاداً (أحفاد الوالدين الأصليين)، ما يشعرهم بامتداد وجودهم في المستقبل بالأولاد والأحفاد، وندرك جميعاً حجم الفرق عندما يكون لدينا ولد واحد فقط (فتى أو فتاة) في الأسرة، والشعور مختلف تماماً عندما يكون للولد إخوة وأخوات، كما أن الشعور يختلف عندما لا يكون للولد عمات وأعمام أو خالات وأخوال أو أجداد وجدات، فوجود الأسرة الممتدة يُمدُّ الأولاد بالدعم والمساندة، ويُسهم في الاستقرار النفسي، ويزداد هذا الشعور عندما يكون لهم أسرة أكبر (من ناحيتين: الأب والأم) حيث تتاح فرص الدعم والمساندة النفسية عندما يكون للأولاد مجموعة من العلاقات تمكنهم من القيام بالأدوار المتنوعة والمختلفة في محيط الأسرة.

فاللأنثى دورها حين تكون ابنة وأختاً وزوجة وأمّاً وخالة وعمة وجدة، وللذكر دوره حين يكون ابناً وأخاً وزوجاً وأباً وخالاً وعمّاً وجدّاً.

الأسرة تدوم لك!

إذا كنا سنموت غداً، فستعيّن الشركة أو المؤسسة التي نعمل فيها شخصاً آخر مكاننا في غضون أيام، بينما الأسرة التي نتركها سوف تشعر حين نموت بالخسارة ما بقت الحياة، فبعضنا يبذل ويعطي في العمل أكثر بكثير مما يبذل لأسرته، فهل هذا من الحكمة في شيء؟!

أهداف الأسرة في القرآن

تقوم الحياة الأسرية على تحديد الأهداف المرجوّة لها في ضوء رسالتها التزكوية العامة، والتي تتجاوز إنجاب الأولاد للحفاظ على النوع الإنساني من الانقراض؛ إذ الوقوف عند هذا الحد من مجرد الحفاظ على الذات لا يحقق المعاني السامية للإنسان، ما يعني عمق الأهداف الأسرية ودقتها.

خلق الله الإنسان من نفسٍ واحدة، وخلق منها زوجها، ومن هذين الزوجين جاءت البشرية جمعاء الرجال والنساء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ (النساء: ١).

ومع أن الآية وردت في صيغة المفرد، إلا أن تأكيد المسألة نفسها يأتي في صيغة الجمع أيضاً:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾ (النحل: ٧٢).

كما تصف الآية الآتية فكرة خلق البشر على وجه الأرض للقيام بدور معين:

﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

تُحدد نصوص الكتاب الحكيم دور كل إنسان على وجه الأرض بوصفه خليفة للقيام بثلاثية : العبادة والعمارة والأمانة، ويظهر ذلك جلياً في قوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦).

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ (هود:٦١).

﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ (الأحزاب: ٧٢)

وبناءً عليه؛ فإن أهداف الأسرة تتمثل في ما يأتي: عبادة الله تعالى بالمعنى الشامل للعبادة، والخلافة في الأرض وعمارتها، والرضا بمشيئة الله في الرزق والعطايا، وصلة الرحم، والحفاظ على الحقوق وأداء الواجبات، وتحقيق الحاجات النفسية من السكينة والحب والرحمة بين أفراد الأسرة، والتي تبدأ بالعلاقة الزوجية ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١).

ومع أن الحب داخل الأسرة يحظى بمرتبة عالية، إلا أنه ليس أفضل أنواع الحب في الحياة، إذ لا بُدَّ أن تحظى محبة الله سبحانه وتعالى، الذي من صفاته الرحمة والعدالة والسلام ومحبة رسوله ﷺ، بأعلى مستوى من الحب، وبذلك ندرك الحكمة في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ (التوبة: ٢٤).

فأساس الحب هو حب الخالق، الذي يظهر منه حبّ الفرد لأبويه وأولاده وأقربائه حتى لو أساؤوا إليه، وذلك لأن حبه لهم يظهر من حبه لله سبحانه وتعالى الذي تستمر نعمه على خلقه حتى عندما يسيئون. ويوضح القرآن الكريم الحب داخل الأسرة:

﴿ ...وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: ١).

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (الإسراء: ٢٣)

تحظى الأم بقدر كبير من الحب والرعاية داخل محيط الأسرة، فرعايتها واجبة أوّلاً، فعندما سأل رجل النبي ﷺ: «يا رسولَ الله من أحقُّ الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمُّك، قال: ثم من؟ قال: أمُّك، قال: ثمّ من؟ قال: أمُّك، قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك» (البخاري).

ويرجو عباد الرحمن أمنيتين: حياة أسرية سعيدة، وأن يصبحوا جميعاً قادةً للمتقين.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (الفرقان: ٧٤).

توضح الآية الكريمة أن هدف الجميع في الأسرة (بما في ذلك الآباء والأجداد والأولاد والأحفاد وامتداداتهم) هو السعادة والفرح والراحة. والهدف الثاني هو إعداد قادة صالحين. ويمكن تحقيق كلا الهدفين بتربية الأولاد على المبادئ المُثلى للسعادة، وهي الأمانة، وعبادة الخالق، وعمارة الأرض، وحب الله ورسله، وتجاهل هذه المبادئ يحرم الأسرة من السعادة.

وتظهر السعادة في تربية الوالدين لأولادهما حين يرونهم يتصرفون تصرفات سليمة متفقة مع مهمتهم في الحياة على هذه الأرض، فاستيعابنا لهذه المفاهيم، وارتقاؤنا لمستواها، وتوضيحها للأولاد أثناء مراحل نموهم المختلفة أمر ذو شأن عالٍ، وهو السبيل لزرع بذور الفضيلة والخير في قلب الأبناء وعقولهم؛ إذ غرس هذا كله أساس في إعداد الشخصية ذات الأخلاق الحسنة، وبتحديد أولويات الابن فوراً ومن البداية. ويقوي هذا الأساس من الاستقامة مناعة الابن في كيفية التعامل مع الإغراءات الكثيرة من حوله؛ إذ لا يمكننا الاعتماد فقط على «الشرطة» الخارجية

لحماية المجتمع، فأكثر الآليات فاعلية في الحماية: هي نظام القيم والأخلاق الذاتي الداخلي أو ما يسمى بالضبط الذاتي، إضافة إلى احترامهم وتقديرهم لذاتهم وقدرتهم على ضبط أنفسهم، فأخذ الوالدين بيد أبنائهم وتوجيههم للاستفادة من نص الوحي الإلهي يرسخ الإيمان والصدق والرحمة في مرحلة مبكرة من حياتهم.

الانتقال إلى مرحلة الأبوة والأمومة

للأسرة جانبان اثنان، هما: جانب الوالدين وجانب الأولاد. ينتقل الوالدان من مرحلة أن يكونا فردين إلى مرحلة ثلاثة أفراد لأول مرة عند إنجاب الطفل الأول، وبذلك يدخل الوالدان مرحلة جديدة من الحياة، ويخضع الوالدان عندئذ إلى فترة من التكيف بسبب التغيرات في نمط الحياة التي يفرضها إنجاب الأولاد، وتشمل هذه التغيرات الصعوبات والتحديات من جانب، والفرح والسعادة من جانب آخر.

عندما يولد طفل لأسرة مسلمة، فإن هناك ممارسات دينية معينة تقام للترحيب بالمولود الجديد (عبد الكريم، زيدان، ١٩٩٣)، هي:

- الأذان في أذن الطفل عند الولادة، «روى الحاكم عن أبي رافع ﷺ قال: «رأيت رسول الله ﷺ أذّن في أذن الحسن بن علي حين ولدته فاطمة بالصلاة.» (الترمذي)

إن الأذان عند ولادة الطفل له حكمة إلهية، فهو إقرار بوحدانية الله، وتأكيدٌ لرسالة النبي محمد ﷺ، وتذكير للمؤمنين بأن يحرصوا على متابعة إقامة الولد للصلاة في المستقبل.

- تسمية الطفل، فيعطى الطفل اسماً حسن المعنى والدلالة، كي يتحلّى به بما يمليه هذا المعنى في حياته؛ فيصبح اسماً على مسمّى.
- التَّحْنِيك سنةٌ واردة عن الرسول الكريم ﷺ والتحنيك يعني مَضْغ التمر، أو الشيء الحلو بفم شخص صحيح غير مريض، ووضعه في فم المولود، ودَلْك حَنَكه به، وذلك بوضع جزء من التمر الممضوغ على الأصبع النظيف، وإدخال الإصبع في فم المولود، ثم تحريكه يميناً وشمالاً بلطف حتى يشمل الفم كله، ويمكن إدخال جزء من التمر الطري في فم الطفل ليمضغه ويستفيد منه، وإن لم يتيسر التمر فليكن التحنيك بمادة حلوة، وعسل النحل أولى من غيره. وهناك فوائد صحية للتحنيك تعود على جسد الطفل الوليد ونموه. يكون مستوى السكر في الدم للمواليد منخفضاً، وكلما قل وزن المولود كانت نسبة السكر منخفضة، وبذلك فإن المواليد الخداج (أقل من ٢,٥ كجم) يكون مستوى السكر عندهم منخفضاً جداً، وفي كثير من الأحيان أقل من ٢٠ مليجرام لكل ١٠٠ مليلتر من الدم، أما المواليد أكثر من ٢,٥ كجم؛ فإن مستوى السكر عندهم عادةً فوق ٣٠ مليجرام. (محمد على البار)
- ذبح العقيقة، وهي سنّة لا فرض، احتفالاً بمولد الطفل. وتشير كلمة عقيقة باللغة العربية إلى ذبح شاة تقرباً لله وشكراً له على المولود. وقد ذبح النبي ﷺ شاتين عن كلّ من حفيديه الحسن والحسين، ويكون الذبح في اليوم السابع من الولادة أو بعد ذلك. ويمكن طَهْي اللحوم ودعوة الناس لأكلها، وتسمى عندئذ عقيقة، ويجوز إطعامها للأسرة وللآخرين في المجتمع من الفقراء والأغنياء سواء من دون تفريق بينهم. ويجب أن تكون الذبيحة على الأرجح سليمة وخالية من العيوب، وأن يقال عند ذبحها: بسم الله والله أكبر، اللهم لك وإليك، اللهم هذه عقيقة فلان. عن النبي ﷺ قال: «كُلُّ غُلامٍ رَهِينٌ بِعَقِيقَتِهِ، تُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ سَابِعِهِ وَيُحْلَقُ رَأْسُهُ

وَيُسَمَّى» (النسائي)، كذلك طلب النبي ﷺ من ابنته فاطمة أن تَزِنَ شعر الطفل المحلوق بالفضة وأن تتبرع بقيمة الفضة للفقراء. وعند اليهود طقوسٌ مماثلة، أما عند المسيحيين فإن «التعميد» يلبّي مطالبهم عامةً. والمَعْموديّة هي طقسٌ مسيحيٌ يمثل دخول الإنسان للمسيحية، وتتمُّ باغتسال المعمَّد بالماء سواءً بتغطيسه كاملاً تحت الماء مرة واحدة، أو بتغطيسه ثلاث مرات، أو برش الماء على وجهه إشارة إلى غسل روح القدس. ويعتقد بعض البروتستانتيين أنه لا لزوم لتعميد الأطفال، إلا أن أغلبية النصارى توجب تعميد الصغار، ويعدُّ العِماد خِتمٌ أبديٌ لكل شخص نال سرَّ المعمودية ويبقى مسيحياً حتى الممات.

تأثير الأولاد في الاستقرار الأسري

تتعرض الأسرة للضغوط منذ إنجاب الأولاد، فمع أن الأبوة والأمومة هبة عظيمة، إلا أن الإنجاب ليس دائماً الحدث السعيد الذي نتصوره، وعلى الآباء والأمهات أن يدركوا أن حياتهم ستتغير كثيراً، ويلزمهم إعداد أنفسهم لمواجهة التحديات التي تنتظرهم. وسيضطر الآباء والأمهات إلى التضحية وتقديم بعض التنازلات عن مصالحهم واهتماماتهم لصالح الطفل، وسوف يخضعان لامتحان لمعرفة مدى قدرتهم وتحملهم لهذا الزائر الجديد، ولن يكون من السهل، خاصة للأمهات، تحمل الإرهاق والتعب الذي سيصيبهن تلبيةً لحاجات الطفل المستمرة. ولا يتوقع الأب عند عودته إلى البيت، بعد إنجاب أول ولد، أن يجد دائماً الزوجة المبتسمة المسرورة والطفل السعيد والمنزل النظيف والوجبة الشهية، فبسبب أعباء الأمومة الجديدة عليها غالباً ما تكون منهكة غير بَشوشة وغير قادرة على العناية بزوجها كسابق عهدها.

أيتها الأمهات؛ لن يكون بمقدوركنَّ أن تكنّ كل شيء في الوقت نفسه! لا يوجد ما يُسمى أم بلا عمل.

لا تحاولي أن تكوني الزوجة المثالية والوالدة الجيدة وربة المنزل الناجحة والموظفة المتميزة في الوقت نفسه. يمكنك أن تفعلي كل هذه الأشياء المختلفة، ولكن في أوقات مختلفة. سيغير الأولاد حياتك الخاصة تغييراً كبيراً؛ لذلك عليك أن تتقبلي التغيير وتكوني ودودة ومَرِنة مع أفراد عائلتك.

يرافق مرحلة الأمومة إرهاق نفسي وجسدي وعاطفي بدرجات متفاوتة، فقلة النوم، والعناية الدائمة بالطفل، والانتباه له يؤثران على العلاقة بين الزوجين؛ الأمر الذي قد يسبب خلافات على الأغلب بين الأزواج، وتصبح الأمور المادية بين الزوجين أكثر أهمية من غيرها، بسبب التزام الطرفين بنظام معين للإنفاق، إضافة إلى العناية بالولد في الوقت ذاته.

وتزداد تأثيرات الأمور المالية على العائلة وهي تواجه أعباء العمل والمنزل والطفل الجديد، ويكون لهذا كله انعكاساته على الحياة الزوجية، كذلك تصبح حياة الوالدين مرهقة ومشحونة بالتوتر، خاصة الذين يعملون بدوام كامل، ويتجنب بعض الآباء والأمهات وضع أطفالهم في حضانة رعاية الأطفال، ويعملون بنوبات عمل بديلة لضمان وجود أحد الوالدين باستمرار مع الطفل في المنزل. ومع أن هذا أمر جيد للطفل، إلا أنه ليس بالضرورة أن يكون جيداً للزوجين كذلك. وقد يؤدي شعور الوالدين بعقدة الذنب بسبب ندرة توفر وقت كافٍ يقضونه مع الأولاد، زيادة على تفاقم الأمور أكثر بقضاء «الوقت المخصص للزوجين» لصالح «وقت الولد».

وفيما يأتي بعض الاقتراحات لمساعدة الأزواج في إدارة مرحلة الانتقال إلى الأبوة والأمومة، كي تكون وطأة التغيير والتوتر أخف على الأسرة من كونهما زوجين إلى أب وأمّ.

١. تخصيص وقت كاف للزوجين يومياً أو أسبوعياً على الأقل، كي يقضياه معاً دون الأولاد، ويمكن أن يتضمن هذا الوقت مثلاً: المشي، أو ممارسة الرياضة، إضافة إلى التحدث بالهاتف معاً خلال النهار، أو التبكير بالنهوض بضع دقائق عن الوقت المعتاد للتسامر. وكذلك قضاء بعض الوقت في تناول الطعام معاً، والتعبّد، والتمتع بالعلاقة الزوجية، حيث إن مطالب الطفل سوف تستغرق جلَّ الوقت، فيخصص وقت للتواصل حتى ولو كان على حساب تأخير غسل الملابس وتنظيف المطبخ والبيت.

٢. تبادل أطراف الحديث عن الآمال والتطلعات، ومناقشة أي مخاوف جديدة بخصوص أدوارهما كوالدين، وعن تأثير الأبوة والأمومة على صحتهما وعلاقتهما وعملهما.

٣. مناقشة الخلافات، وعدم الخوف من مواجهة الطرف الآخر عند الحديث عنها، والنظر إلى الخلاف بوصفه مؤشراً على وجود مشكلة يلزم حلّها، وطلب المشورة معاً بلا تردد من المتخصصين إن اقتضى الأمر.

٤. الحديث مع صديق موثوق أو زميل في العمل ممن لديه تجربة الانتقال إلى مرحلة الأبوة والأمومة، الأمر الذي يساعد على تخفيف مشاعر العزلة. والتأكد من التحدث مع شخص من الجنس نفسه، مع عدم

الإباحة بأي شيء من الأسرار الخاصة بالطرف الآخر.

٥. الوعي بالدور التكاملي للوالدين في تنمية شخصية الأبناء، فالأبوة والأمومة تبنى على شراكة لا تنفصم عراها بين الأب والأم، فمع أن لكل منهما مهمة مختلفة، فإنهما في الوقت نفسه يكمّل أحدهما الآخر. وحين يقوم الوالدان باللعب مع ولدهما، فإنهما ينميان شخصيته. فالأم تحتضن طفلها وتضمه إلى صدرها، فتفيض عليه من الحب والعاطفة، أما الأب؛ فيلاعبه كأن يلقيه بلطفٍ في الهواء (مسموح به فقط بعد بلوغه السنتين)، ويمسك به، ويسمح له بالركوب على ظهره، ويتصارع

معه على الأرض، ومثل هذه الأنشطة تعلّم الولد الاعتماد على الذات، وتُعرضه لدرجة معقولة من الخشونة والمقاومة وتحمل المخاطر.

فالوالدن كلاهما بحاجة إلى القيام بدورهما في تنمية شخصية أولادهما؛ إذ إن الأبوة تعني للأب شراكة مع زوجته، ولا يقوم مقام الأب أحد في القيام بدوره في حماية الأسرة، فعليك أن تكون على معرفة تامة بوقت تدخلك بصفتك أباً، ومتى تتدخل بوصفك صديقاً، ومتى تتدخل لحماية ولدك، ومتى تتركه وحده كي يتعلم دروساً من الحياة، ويكونّ تجاربه الخاصة.

وبغض النظر عن كيفية تأثير إنجاب الأولاد على مشاعر الوالدين في علاقتهما الزوجية، فإن الأولاد يساهمون في زيادة الالتزام في العلاقة الزوجية.

فالوالدان اللذان لديهما أولاد صغار سيحرصان على الحفاظ على زواجهما لضمان توفير مستوى أفضل من العيش الكريم للأولاد. كما يشعر الوالدان (الأم خاصة) بمزيد من الضغوطات والأعباء بوجود الأولاد كي يحافظا على رابطة الزواج، حتى ولو كانا غير راضيين كاملاً عن علاقتهما الزوجية. وبغض النظر عن مدى زيادة الأبناء لسعادتهما الزوجية أو التقليل منها، فإنهم بلا شك يزيدون من بقاء العلاقة الزوجية واستمراريتها، لأنهم يمثلون بذلك المزيد من الضغوط والاعتبارات التي تجنب الزوجين الانفصال والطلاق.

يوضح الشكل ٢,١ أن زيادة عدد الأولاد في الأسرة يتناسب طرداً مع ثبات العلاقة الزوجية بين الوالدين واستقرارها.

علاقة نسبة الطلاق بعدد الأولاد في الولايات المتحدة الأمريكية

شكل ٢,١ (Knox and Schacht– 1997)

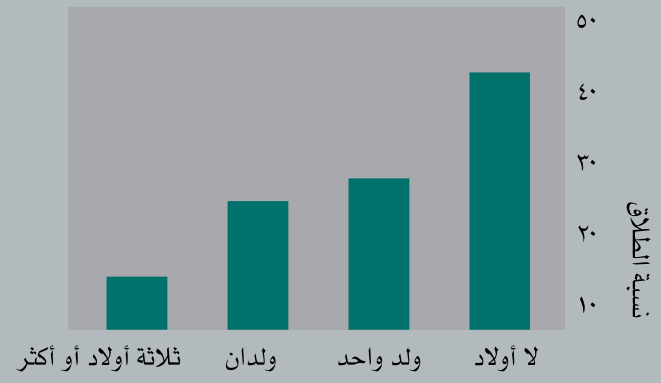

نسبة الأزواج الذين يتطلقون مرتّبة حسب عدد الأولاد

تعد نسبة الطلاق بين الأزواج ذوي الأبناء أقل ٤٠٪ من نسبة طلاق الأزواج من دون أبناء. (McKinley Irvin Family Law 2012).

٤٣٪ من الأطفال في أمريكا اليوم يتربون من دون آبائهم.

٧٥ ٪ من الأطفال ذوي الآباء المطلقين يقيمون مع أمهاتهم.

٢٨ ٪ من الأبناء الذين يعيشون مع أحد والديهم المطلقين يعيشون في دخل أسري أقل من مستوى خط الفقر.

نصف الأطفال الأمريكيين سيشهدون انفصال زواج آبائهم، منهم ما يقرب إلى النصف سيشهد انفصال الزواج الثاني.

يوضح آرثر بروكس Arthur Brooks في كتابه (Gross National Happiness - 2008) ازدياد احتمال كون الوالدين في الولايات المتحدة ممن لديهم أطفال أكثر سعادة ممن ليس لديهم أطفال؛ لأن الأطفال يضيفون معنى جميلاً للحياة، فالزوجان المتدينان اللذان يرتادان الكنيسة أسبوعياً ضعف عدد ما يرتاده العُزَّب، هم أكثر سعادة، ليس لأنهم أكثر غنىً، ولكن بسبب إغناء حياتهم بوجود الأولاد.

مهمات أُسريّة

الوالدان: إنشاء بيت سعيد.

الأولاد: التعلم من الوالدين وتقديم الدعم لهما.

الأجداد: تجميع الأسرة معاً عبر الأجيال، وتقديم الحب للأطفال، والنصح للوالدين، والخبرة العملية التي مروا بها لأبنائهم وأحفادهم، كما يقدم الجدان للوالدين العلاج الناجع للتخلص من توترات العمل خارج الأسرة، فيبث لهما الوالدان (أبناؤهما) مُختلَف المشكلات والهموم، ويتبادلان معهما الرأي والنصح، وينتهي بتخلّص الوالدين من تلك التوترات.

الأصدقاء: مساعدة الوالدين.

المعلمون: تعليم الأولاد.

الإصلاحيون: إيضاح طرائق التربية الوالدية الناجحة للوالدين.

مرحلة العيش مع الأولاد مرحلة عابرة من سلسلة مراحل حتى ولو كانت عَسِرَة ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: ٥-٦).

مع أن الآباء والأمهات الذين لديهم أطفال رُضّع يشعرون أحياناً أن الليالي الطوال التي يقضونها من دون نوم لن تنتهي أبداً، فإنهم سَيَرَون أولادهم – قبل أن يدركوا ذلك – وقد كبروا واستقلّوا عنهم، فالعلاقة بين الوالدين وأولادهما مآلها إلى الابتعاد عن بعضهم لاحقاً بصورة أو بأخرى، نقيضة ما يكون في العلاقة بين الزوجين، وكما بدأ الوالدان حياتهما الزوجية وحيدين قبل إنجاب الأولاد، فسيعودان لسابق عهدهما مرة أخرى بعد استقلال أولادهما وتركهما عشّ الأسرة. فالأبوة أو الأمومة هي أحد المراحل المهمة في الزواج والحياة؛ إذ قد يشكل الوقت الذي يعيشه الوالدان مع الأولاد نحو ثلث حياتهم تقريباً، وأكثر من نصف حياتهما الزوجية في الغالب، ومن يصبح والداً لمرة واحدة، فهو والدٌ إلى الأبد؛ إذ تستمر العلاقة بين الوالدين وأولادهما حتى بعد زواج الأولاد ومغادرتهم المنزل، ومن المهم أن تستمرَّ العلاقة سواءً أكان الأولاد يقطنون في مكان قريب من والديهما أو بعيد، ويبقى التواصل إلى أن يصبح الآباء والأمهات أجداداً، وحتى بعد مماتهما؛ إذ يُعدُّ ذلك من صلة الأرحام الدائمة.

حجم الأسرة في الولايات المتحدة وبريطانيا بين الماضي والحاضر

لقد أثَّرَ صغر حجم الأسرة في العلاقات داخل الأسرة، حيث يحصل الأولاد في هذه الأُسر الصغيرة الحديثة على أوقات أكثر من والديهم وما يسمى بطفرة الأطفال في الولايات المتحدة الأمريكية (وهم سبعة وسبعون مليون طفل أمريكي ولدوا ما بين عامي ١٩٤٦م و١٩٦٤م) أنجبوا ما يقدر بنحو ٨٠ مليون ولد فقط، وكان الدخل والتعليم في ذلك الوقت عاليين، فحجم الأسرة كان صغيراً. وتعمل وسائل تحديد النسل والإجهاض على تمهيد الطريق لينجب الوالدان أولاداً أقل.

وتضاءل أيضاً حجم الأسرة بسبب ارتفاع عدد الآباء العاملين وزيادة حركة تنقلات الأُسَر وابتعاد الآباء عن أسرهم وأقربائهم.

وسجلت بريطانيا ازدياداً ملحوظاً في عدد الأسر ذوي الطفل الواحد في خلال فترة أقل من جيل واحد. حيث سجلت إحصاءات ٢٠١٢ الآتي: هناك ٤٧ ٪ من الأسر لديها طفل واحد و ٣٩ ٪ لديها طفلان، في حين أن ١٤ ٪ فقط لديهم ثلاثة أطفال أو أكثر (Office for National Statistics). كما أن ٢٠٪ من النساء مواليد عام ١٩٦٤م لم ينجبن، في مقابل ١٢٪ لمن هم مواليد ١٩٣٧م. (BBC 2010).

وفي ١٩٦٠م ، ٧٧٪ من النساء الأمريكيات تركن بيوت أُسَرهنّ وتزوجن وأَنْجبن أبناء عند بلوغهن الثلاثين من العمر، بينما انخفضت هذه النسبة إلى ٤٦٪ في عام ٢٠٠٠م، وذلك حين بلغ منهن مواليد ١٩٦٠م الأربعين من العمر. (Kantrowitz and Tyre 2006). وكذلك فقد قُدِّر في عام ٢٠٠٠م بالولايات المتحدة الأمريكية متوسط عمر الفرد عند زواجه لأول مرة ٢٦,٨سنة للرجال و٢٥,١ سنة للنساء، وذلك بعد أن كان ٢٢,٨ للرجال و٢٠,٦ للنساء في عام ١٩٦٠م. (Pew Research Center 2011).

كانت الفكرة السائدة عند الآباء والأمهات في الماضي أن إنجاب الأولاد مثل صنع الكعكة، فإذا لم يكن الولد الأول جيداً فينجبون آخر، وإذا لم يكن الثاني جيداً ينجبون ثالثاً، وهكذا يمكن دائماً إنجاب أولاد جُدُد إذا لم يصلح الذين قبلهم! وقد اختلف الحال في الزمن الحاضر، فالكثير من العائلات لديها طفل أو طفلان فحسب، فهي تُوْلِيه أو توليهما قدراً أكبر من الاهتمام، فأصبحت الأسرة أصغر حجماً بسبب ضغوط عمل الأب والأم، وزيادة نسبة تَنَقُّل الأسر، وبسبب بعد المسافة بين مكان سكن الوالدين وأقاربهما.